JALHSS
مجلة الفنون والأدب
وعلوم الإنسانيات والاجتماع
www.jalhss.com
ISSN online: 2414 – 3383
ISSN print : 2616 - 3810
العدد (22)
نيسان - أبريل 2018

التحولات الثقافية والمكانية في سيرة مدينة عمان في الاربعينات لعبد الرحمن منيف

م.د. محمد انور اسماعيل
قسم اللغة العربية
كلية التربية الأساسية ـ الجامعة المستنصرية
بغداد ـ العراق

الخلاصة

يتضمن هذا البحث والموسوم بـ (التحولات الثقافية والمكانية في سيرة مدينة عمان في الاربعينات) للكاتب عبد الرحمن منيف قراءة للتحولات الثقافية والمجتمعية والمكانية لمدينة عمان الاردنية في حقبة زمنية من القرن العشرين المنصرم ويدخل هذا العمل ضمن السيرة الذاتية ولكن سيرة للمكان من خلال ذاكرة الكاتب في مرحلة من مراحل طفولته ويحاول من خلاله ان يشخص لنا اهم التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لمدينة عمان وكيف انها تحولت وتغيرت خلال مدة معينة من قرية صغيرة الى مدينة كبيرة فهي محاولة لاستعادة ذاكرة المكان والشخوص والاحداث وما حصل لتلك المدينة من تغيرات.

The Cultural and Spatial Changes of Amman City during the Forties for Abdurrahman Munif

Muhammad Anwar Ismael. Ph.D.
Department of Arabic Language
College of Basic Education - Al-Mustansiriyah University
Baghdad - Iraq

ABSTRACT

The current study entitled Amman's Cultural and Spatial Changes during the Forties for the author Abdurrahman Munif surveys the most important cultural, social and spatial changes of Amman city in Jordan with the shift of its traditions and customs in a certain period of time from the previous decade. This work is a biographical in nature but from the author's perspective and memory. He tries to figure out the most influential conversions in social, political and economic domains and how it become a big city in limited time duration after being a small village for a long time. This work is a trail to bring back memories, events, characters and places and the changes that had happened to that city.

توطئة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، أما بعد

فقد تناول العديد من الكتَّاب والباحثين موضوع السيرة سواء أكانت سيرة ذاتية أم غيرية ، وكتابة المذكرات ، والتراجم لحياتهم الشخصية ، أو الكتابة عن الاخرين ، معتمدين في ذلك على ذاكرتهم الجمعية ، اذا كانت الكتابة عن الذات ، أو على الوثائق والمستندات والحقائق ، والوقائع التاريخية باسلوب ادبي رفيع ، مشابه لإسلوب كتابة الرواية والقصص .

وهنا يجب علينا ان نميز بين السيرتين (الذاتية – الغيرية) ، فالأولى كما يعرفها فيليب لوجون philippe lejenne بأنها " حكي استعادي ثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص ، عند التركيز على حياته الفردية وتاريخ شخصيته " [i] ويصف لوجون هنا السيرة الذاتية بالحكاية اي عملية سرد واسترجاع للذكريات والوقائع والاحداث بصورة تامة، ويحاول الكاتب ان يسترجع كل الذكريات ولكن بنمط الكتابة الادبية ، فالسيرة الذاتية " بحث يقدم فيها الكاتب حياته أو حياة أحد الاعلام المشهورين ، ويبرز فيها المنجزات التي تحققت في حياته أو حياة المتحدث عنه "[ii]، وهنا نرى ان صاحب التعريف لم يفصل بين السيرتين (الذاتية والغيرية) وانما جعلهما في مفهوم واحد عندما حدد الكتابة عن الذات الواحدة أو الذوات الاخرين من الناس .

ومما سبق يمكن القول ان السيرة الذاتية هي نصوص تعبيرية بلغة ادبية ، يعتمد الكاتب على اسلوب السرد والحكي، وما فيهما من عناصر اساسية من احداث وشخصيات ووجهات نظر ، فضلاً عن عنصري الزمان والمكان ووجود الراوي والمروي له وغيرها ، يقدم فيها حياته السابقة منذ الطفولة وحتى لحظة كتابته للسيرة.

وقد ورد مفهوم السيرة الذاتية في الموسوعة البريطانية بأنها " نوع خاص من السّيرة " [iii] فهي ليست مجموعة من الحوادث والذكريات القديمة فقط ، وانما هي " نوع من أنواع الفن القصصي ، لذلك لابد من ان يكون لها بناء فني مثل سائر انواع الفن القصصي الاخرى " [iv]، وهذا ما قلناه سابقاً أي وجود عناصر ومقومات الفن الروائي أو القصصي الى جانب عنصر التخييل ، وبمفهوم اخر فالسيرة الذاتية " قصة وحكاية نثرية في أغلب الاحيان ، من خلالها يقدم الراوي ، الموجود في داخلها بشكل حقيقي بعملية سرد حياته " [v]، وأخيراً يمكن ان نصل الى تعريف جامع مانع للسيرة الذاتية ، وكما حددتها الكاتبة تهاني عبد الفتاح بقولها بأنها : " حكي استعادي نثري ، يتسم بالتماسك ، والتسلسل في سرد الاحداث يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص ، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة ، يشترط فيه ان يصرح الكاتب باسلوب مباشر أو غير مباشر أنَّ ما يكتبه هو سيرة ذاتية "[vi] وهذا التعريف مشابه لحد ما لتعريف فيليب لوجون السابق الذكر ، ولكن الكاتبة قد وضعت شرطاً لتحديد نوع وهوية الكتابة ، وذلك بأن يصرح الكاتب بشكل مباشر ان ما يكتبه ليس بعمل روائي، وانما سيرة ذاتية عن حياته، وبهذا يدخل العمل الادبي ضمن اطار السيرة الذاتية ، ومن ثم لا يمكن ان نعدّهُ عملاً روائياً أو قصصياً .

أما النوع الآخر وهي السيرة الغيرية فهي كتابة عن الاخرين بالاعتماد على الوثائق والشهادات والوقائع التاريخية ، والمستندات[vii]، مع توافر مقومات العمل الادبي الفني ، تُقدَّم من ذلك الشخص الذي يُكتب عنه ، أو من أحد اقربائه ، ومثل هذه السيرة تُكتب أما لأن الشخص الذي يُكتب عنه لا يملك مقومات الكتابة الادبية ، ولكنه يملك الوثائق والشهادات ، وأما ان ذلك الشخص لم يعد موجوداً في الحياة ، فيأتي كاتب آخر ليروي عنه ، ويقدمها للجمهور .

وانطلاقاً من هذه المقدمات للسيرة الذاتية فأننا هنا بصدد دراسة كتاب (سيرة مدينة ، عمان في الاربعينات) للكاتب عبد الرحمن منيف[*] لرصد لأهم التحولات الثقافية والمكانية لمدينة عمَّان في مرحلة الاربعينيات من القرن العشرين المنصرم ، فهي سيرة للمكان من خلال ذاكرة الكاتب ايام طفولته ، وتحديداً في السنوات العشر الأول من حياته ، ولكن هذه السيرة تختلف عن كل المقدمات التي ذكرناها سابقاً عن السيرة الذاتية والغيرية ، لذا فأننا هنا امام

نوع جديد من السيّر ، وهذا ما صرح به منيف في تقديمه للكتاب ، بقوله : " هذا الكتاب عبارة عن سيرة لمدينة ، هي عمان وليس سيرة ذاتية لكاتبه ، وإن تقاطعت السيرتان ، بسرعة وجزئياً ، في بعض المحطات " [viii] ، وهذا تصريح مباشر من الكاتب نفسه حول طبيعة هذا العمل ، وكأنه يريد قطع الطريق على الباحثين في تحديد جنس هذا النوع ، وانه خارج مفهوم السيرة الذاتية وان كانت في قسم منها ضمن السيّر ، وكذلك يؤكد بأنه ليس عملاً روائياً لخلوه من الخيال وان كان محدوداً [ix]، اذاً نحن امام مشكلة ادبية في تحديد هوية هذا العمل ، هل هو ضمن السيّر ام المذكرات أو الروايات والسير الذاتية أم غير ذلك ؟ .

هذه التساؤلات يجيب عنها الكاتب نفسه ، إذ ينفي هذه المقولات ، ويقول انها عملية استعادة ذكريات مكان معين من خلال الذاكرة ، وأيضاً يفنّد بأن هذه الاستعادة لم تكن من خلال الاستعانة بالكتب والوثائق ، وانما بالاعتماد على الذاكرة من خلال " عيني انسان عاش ذاك الزمن في ذلك المكان ، وافترض ، بالتالي أن من المفيد أن " يقول " ؛ كيف رأى الاشياء ، كيف عرفها أو تعرف عليها ، دون مقارنتها مع المراجع والمصادر والارقام ، بإعتبار أن هذه القراءة تتيح إمكانية جديدة للكشف والاكتشاف ، ومن ثم لإعادة ترتيب الأحداث والوقائع بطريقة مختلفة ، قد تساعد على رؤية إضافية " [x]، اذاً هي قراءة جديدة وباسلوب جديد لمدينة عمَّان قد تساعد على اكتشاف اشياء جديدة لم تعرفها الاجيال السابقة وحتى اللاحقة ، بعبارة اخرى هي اعادة رسم ذلك المكان بشكل جديد ومختلف عما ذكرته كتب التاريخ لمدينة عمَّان .

ونطالع في هذه السيرة اهتمام منيف بالجوانب الثقافية ، والاجتماعية والسياسية ، والاقتصادية لمدينة عمان في تلك الحقبة ، عندما كانت مدينة صغيرة محدودة الشوارع ، والحارات والمحلات والابنية ، وكيف أصبحت فيما بعد مدينة كبيرة بفعل التحولات التي طرأت عليها خلال فترة معينة .

وتأتي دراستنا هذه لرصد مظاهر التحول في الجوانب الثقافية كالعادات والتقاليد والاعراف بين فئات هذه المدينة ، وكذلك التحول الحاصل في الامكنة وغيرها .

التحولات الثقافية (العادات والتقاليد)

الازياء:

ويأخذ موضوع الأزياء اهتماماً كبيراً عند منيف، فقد تحدث بشكل واضح عن عادات الناس وتقاليدهم في اللباس لابناء مدينة عمّان واختلافها عن بقية المدن الاخرى ، وهي جزء من الثقافة الشعبية لتلك المدينة ، فتحدث عن زي الرجال والنساء والاطفال، وذكر استعمال الشباب لغطاء الرأس(الطربوش)[*] وكيف تراجعت بعد سنوات من دخولها إلى عمّان، فاقتصرت على رجال السن، وكذلك تحول المرأة من لبس الحجاب إلى السفور، وتأثير دخول (البالة) وهي الملابس المستعملة القادمة من البلاد الاوربية إلى الاسواق، وكيف أثرت في تغيير الذوق العام وفي أشكال الثياب.

ويأتي موضوع غطاء الرأس (الطربوش والسدارة) من ضمن المظاهر الثقافية الجديدة على المجتمع العماني في تلك الحقبة، ويذكر منيف في حديث (الجدة) - يبدو أنه يعني جدته من أمه، وهي من أهل بغداد- أن أهل عمان لا يعرفون السدارات وهو غطاء للرأس تميز به أهل بغداد في تلك الحقبة، فعندما جلبت الجدة مجموعة من هذه السدارات من بغداد، وكيف أثارت استغراب الصبيان لهذه الأغطية حتى قالت: "ينراد أيام وسنين حتى عمان تتعلم على السدارة!" [xi]، فإذا لم تعرف أهل عمان زي السدارة، فقد عرفت زياً آخراً وهو الطربوش، ويذكر الكاتب أن معظم الموظفين، وكبار رجالات الدولة اعتمدوا على الطربوش كزي رسمي، وحرصوا على ارتدائه[xii]، وكذلك ارتدى كثيرون هذا الزي، وذلك "للدلالة على الموقع الاجتماعي، وللتعبير عن الأهمية أو الطموح."[xiii].

ويحاول منيف أن يقدم للقارئ صورة مفصلة عن الطرابيش في مدينة عمّان، وطريقة وضعها على الرأس من خلال ذكر أسماء لشخصيات متنوعة من المجتمع، إذ ارتديت بطرائق مختلفة، ولكل طريقة معنى معين، فحين "يتغير وضع الطربوش على الرأس يشير إلى: المزاج النفسي أو أهمية الطرف المقابل، وربما نوعية القضايا التي يجري بحثها." [xiv] ويستعرض منيف مجموعة من الشخصيات كانوا يرتدون الطرابيش ولكل واحد منهم طريقته الخاصة في ارتدائها، وعلى سبيل المثال "أبو حسن الحلاق، المطهر، الذي يعرج قليلاً، يتعمّد أن يكون طربوشه مستريحاً، أي يميله قليلاً أو كثيراً إلى الخلف، ويجعل شراشيبه عند الأذن اليمنى، وهذا يدل على الرضى وخلو البال وحب الطرب. أما طربوش روكس بن زائد العزيزي .... فيدل على الجدية البالغة وانشغال البال، ... وعبد الرؤوف منكو... حين يرتديه يتركه مسترخياً شديد الميلان على رأسه، وهذا تعبير عن موقف، إن لم يكن فلسفة كاملة في الحياة! أما صبري الطباع فإنه يتعمد أن يميل طربوشه، لكن بمقدار وبشكل مدروس ... ومحمد الجمعان لبس الطربوش خطأ، إذ بعد أن زار القدس وصلّى في الأقصى، وفي لحظة وجد، قرر أن يعود إلى عمان بالطربوش الموسوم بقطعة صفراء"[xv].

و يؤكد منيف أن الحديث عن الطربوش يعد "أحد المؤشرات في قراءة المجتمع، وما طرأ عليه من تغيّرات، لأن الانتقال من زي إلى آخر تمليه اعتبارات كثيرة، من ضمنها الحاجة والضرورة ونوعية العمل، إضافة إلى ما يمثله الزي من معنى أو طموح، وأيضاً ما يواجهه من حضارات وتحديات"[xvi]، ولذا ولهذه الاعتبارات لم يبق الطربوش الزيّ المعتمد في مدينة عمان، ففي نهاية عقد الاربعينيات تخلى الشباب عنه، وتراجع بشكل كبير، إلاّ لدى بعض كبار رجال السن، واصبح مرفوضاً وشيئاً من التراث، وكذلك ما حصل لزي القبلق الشركسي الذي كان أحد مظاهر الجمال والاناقة واثبات الهوية، وأصبح فيما بعد مظهراً فلكلورياً ، وكذلك التغيير الحاصل في هيئة ملابس الحرس الاميري، الذي أصبح بعد مدة جزءاً من التراث[xvii]، وإلى جانب هذه التغييرات في نوعية الأزياء، فإن التغيير الآخر الذي حدث هو في هيئة تلاميذ المدارس الحكومية الذين كانوا يعتمدون على (الحطة والعقال) وهو الأكثر انتشاراً، ويعد الزي الرسمي لهم، فلم يعد التلاميذ ملزمين بإرتداء هذه الأغطية، وأي نوع آخر من الأغطية[xviii].

اما بالنسبة لزي المرأة فقد دخلها التغيير ايضاً، وتحولت من الحجاب إلى السفور، وبدون عوائق اجتماعية أو دينية تمنعها من ذلك؛ وذلك لوجود العنصر الشركسي الذي ترك آثاراً واضحة على طبيعة المجتمع في عمان، فظاهرة السفور من أهم المشاكل التي تعانيها الدول العربية والاسلامية، ولكن تحول المرأة إلى السفور في عمان كانت أسهل من بقية الدول الاخرى، فلم تلق المرأة صعوبة كبيرة في عملية التحول هذه[xix]، ولذا فقد تغيرت هذه الحالة "حتى الحجاب وأغطية الرأس اللذان كانا جزءاً من شكل المرأة ما لبث أن تغيرا، أو تم الاستغناء عنهما نهائياً، في كثير من الحالات." [xx]، ولم يقتصر الأمر على هذا المظهر، فقد تعددت الأزياء بالنسبة للمرأة في مدينة عمان وتنوعت، فنرى الملاية الشامية التي كانت دائماً بنوع واحد ولكنها تتنوع بحسب طبيعة الشخصية التي ترتديها وطريقة لبسها[xxi]، وقد أشار منيف فيما يخص هذا الموضوع إلى دور "البالة" في تغيير أذواق الناس في ارتداء الثياب وكيف أنها بدأت تتنوع بأشكال جديدة والوان مختلفة[xxii]، وهذا كله جزء من عملية التغيير الثقافي التي تشهدها المجتمعات خلال الحقب المتعاقبة.

عادات تزجية الوقت (الالعاب الشعبية)

و يقدم الكاتب في سيرة مدينة مجموعة من الالعاب الشعبية، التي تبين وتوضح لنا ثقافة المجتمع العمّاني في حقبة معينة، وكيف تغيرت بعض هذه الالعاب، بفعل التغيير الحاصل في نواحي الحياة المختلفة، وتأثير الحروب التي ساعدت على إدخال عادات جديدة إلى المجتمع في تلك الحقبة، حتى ولو كانت ألعاباً للأطفال فهي جزء من ثقافة الشعوب، ومن مظاهرها المميزة، ويؤكد منيف أن أطفال عمّان في حقبة الاربعينيات من القرن العشرين عرفوا بعض من الألعاب، إذ كانوا يعتمدون على أنفسهم في صناعتها، على خلاف العادة وهي شراء هذه الألعاب من الاسواق من قبل الأهل فهم المسؤولون على تأمين هذه الألعاب لأطفالهم، فهي أدواتهم للتسلية وتزجية الوقت، ولكن ظروف الحرب العالمية الثانية ألقت بظلالها على ألعاب الاطفال في ذلك الوقت، ومن بين هذه الالعاب، لعبة كرة القدم، إذ يقوم الأطفال بصناعة هذه الكرة "فحين يتعذر شراء الكرة، ايا كان نوعها، لابد من اختراع كرة. وحين يتعذر وجود ملعب نظامي،

لابد أن يهيأ أو يكتشف ملعب مناسب. لذلك، وخلال فترة قصيرة، تكون كرة الخرق، المتقنة الصنع، تتطاير بدل كرة المطاط، ويكون الشارع، أو أي أرض خلاء، الملعب الذي يملؤه الاطفال بالأصوات والضجة، وبالخصومات أيضاً!" [xxiii]، ويتحدث منيف في هذه الفقرة من سيرة مدينة عن مواسم الالعاب، واختيار الاطفال لألعاب معينة في أوقات معينة من السنة، فهي تتغير من وقت إلى آخر تبعاً لرغبة الاطفال في ألعاب جديدة، وهنا يستعرض الكاتب مجموعة كبيرة من الالعاب الشعبية، وكيف يختار الاطفال هذه الالعاب؛ لتتلاءم مع كل موسم جديد، فإذا ما ظهرت لعبة جديدة حتى انتشرت في عمان كلها وإلى أن تختفي حتى تظهر لعبة أخرى جديدة، ومن ابتكار الاطفال ومنها لعبة (السلك والكركر والدحريجة والبلابل) [xxiv]، وإذا ما انتهى موسم هذه الالعاب حتى يبدأ موسم الطيارات الورقية، ويكون وقته في الصيف "حين تكون الريح مؤاتية"[xxv]، ثم تأتي العاب أخرى، لتصبح هي اللعبة الأكثر انتشاراً في الأحياء والمناطق، والاكثر تداولاً مثل لعبة الگلول والازرار، ويأخذ الأهل موقفاً معارضاً لهذه الالعاب، يقول الراوي "مع الگلول، وبشكل موازٍ، كانت لعبة الازرار، وهي تشبه لعبة الگلول، لكن أكثر تواضعاً، وعادة يلعبها الصغار... إذا غابت هذه اللعبة، وليس للجدة أي دور في ذلك، تظهر ألعاب أخرى. كانت الجدة تحدث نفسها بعض الأحيان والاخرون يسمعون:

- شياطين، أي نعم شياطين، وأكبرهم ابليسهم اللي علمهم السحر ... وبعد قليل، وتبدو لهجتها أكثر حزنا:

- ما نخلص من قضية إلا وتجي أنجس منها." [xxvi]، وتظهر العاب أخرى مثل لعبة العكازات الخشبية، لتختفي ولتظهر لعبة "القرد والشارة"[xxvii]، ويتوسع منيف في سرد طريقة لعب هذه الالعاب التي تصبح عادة يكررها الاطفال، ولتتغير في أوقات معينة، وبحسب موسم كل واحدة منها، ويرصد منيف ألعاباً أخرى تتعلق بالصيد، ومطاردة الطرائد، وتأتي هذه في مواسم الدراسة أي أيام المدرسة، فنرى أدوات الصياد الخاصة بالصغار وهي (المغيطة) فقد " كان أولاد عمان، وهم يتصيدون العصافير ذلك الوقت، قساة أكثر مما ينبغي، كانوا يتصيدون العصافير الصغيرة والعصافير الكبيرة، التي تؤكل والتي لاتؤكل، في مواسم الصيد وفي غير مواسمه، وكانوا لا يرون من أية شجرة سوى العصفور الذي يتنقل بين أغصانها أو "الشعبة" المناسبة لمغيطة جديدة!" [xxviii]، ويسترسل منيف في عرض العاب جديدة تخص الصيد مثل صيد الحرادين والدبابير، وملاحقة الوطاويط، ومعاكسة ديوك الحبش التي تصبح عادة جديدة تضاف إلى تلك العادات الاخرى[xxix]، وهكذا نرى تحول هذه الالعاب البسيطة إلى عادات يواظب عليها الصغار ويزاولونها في أوقات محددة من السنة، وقد رأينا قدرة الكاتب الذهنية، ومدى قوة ذاكرته في وصف هذه المظاهر، ومظاهر أخرى ذكرها في هذه السيرة، فهو يرمي إلى بيان حالة المجتمع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، بل حتى السياسية من خلال ذكر تفاصيل دقيقة لعاداتهم وتقاليدهم وما يطرأ عليها من تغييرات وهي عادات لتزجية الوقت والترفيه عن النفس.

تحولات المكان

ويحاول عبد الرحمن منيف في هذه السيرة عن المكان أن يستعيد ملامح مدينة عمان في اربعينيات القرن الماضي، وأن يبين الخطوط العريضة التي تشكلت منها تلك المدينة، كيف كانت؟ وكيف أصبحت؟ وتغيرت خلال حقبة زمنية من تاريخها؛ وذلك بالاعتماد على الذاكرة، أي تقديم قراءة جديدة للمكان من خلال ذاكرة شخص عاش في ذلك المكان، فهي سيرة مكان (سيرة مدينة)، يقول منيف عنها: "هذا الكتاب عبارة عن سيرة مدينة، هي عمان، وليس سيرة ذاتية لكاتبه، وأن تقاطعت السيرتان، بسرعة وجزئياً، في بعض المحطات"[xxx]، ويستخلص منيف مفهوماً جديداً للمكان، فهو "ليس حيزاً جغرافياً فقط، فهو أيضاً البشر، والبشر في زمن معين... فالمكان يكتسب ملامحه من خلال البشر الذين عاشوا فيه." [xxxi]، ولذا يصبح المكان بمفهوم منيف، هو علاقة البشر بعضهم مع بعض، ومن خلال هذه العلاقة نرى ملامح المكان التي حصلت فيها تلك العلاقات سواء أكانت انسانية أم اجتماعية أم اقتصادية، أم ثقافية، أما المدينة فهي جزء من المكان، أي جزء من البشر في زمن معين، فلا يمكن تحديد ملامح المكان من دون وجود أناس يعيشون فيه، ويتفاعلون مع محيطهم الداخلي والخارجي على حد سواء، فالمدينة عند منيف هي "الحياة بتعددها وتنوعها، هي الأمكنة والبشر والشجر ورائحة المطر، وهي التراب أيضاً، وهي الزمن ذاته ولكن في حالة حركة. المدينة هي طريقة الناس في النظر إلى الأشياء، وطريقة كلامهم، كيف تعاملوا مع الأحداث التي

وقعت، كيف واجهوها وكيف تجاوزوها. المدينة هي الأحلام والخيبات التي ملأت عقول الناس وقلوبهم، التي تحققت وتلك التي طاشت ثم خابت، وكم تركت من العلامات والجروح. المدينة هي لحظات فرح الناس وأوقات حزنهم. المدينة هي الطريقة التي تستقبل بها من تحب وتواجه من تعادي. المدينة هي الدموع التي تودع بها من غادروها، مضطرين، مؤقتاً أو إلى الأبد، وهي البسمات التي تستقبل بها العائدين." [xxxii].

وتعدّ هذه السيرة عن المكان من "أجمل وأمتع السير التي كتبت عن المكان، أنها كتاب في مديح المكان، وأكثر ما يميزها ذوبان التاريخي والموضوعي في الابداعي مع الحفاظ على المتعة بعناصرها المختلفة، وأهمها الجذب والدهشة لينتصر الروائي على المؤرخ، فإذا بالصورة الواقعية هي ذاتها ولكن بعد ما مسها المبدع بسحره، وشفها الإبداع بروحه الخلاقة." [xxxiii]، وأول صورة يقدمها الكاتب للمكان، وهي مترسخة في ذهنه، صورة الموت، وذلك يوم مقتل الملك غازي، وهو أول اكتشاف جديد للمدينة، وكان اكتشافاً مصدوماً بالموت، وقبل هذا اليوم كانت حدود البلدة (عمان) لا تتجاوز ذلك الحي الذي يسكنه الأطفال، عندها أصبحت هذه الحادثة فرصة لتجاوز حدود الأمكنة وتغييرها إلى أماكن جديدة غير معروفة و "بطريقة غامضة اكتشف، ربما لأول مرة، أن هناك عالماً يتجاوز الحي الذي يسكنان فيه، وأن الناس الذين يعرفونهم، والذين لا يعرفونهم، ذهبوا جميعاً إلى هناك، وكان لابد أن يفعلا مثل الآخرين، فذهبا." [xxxiv]، عند ذلك أصبحت الاماكن الجديدة، أماكن معادية وقاسية وغريبة عليهم.

ويستعيد منيف في هذه السيرة من خلال ذاكرته، صورة المجتمع العماني بكل تفاصيله، الثقافية والسياسية والاقتصادية، مستذكراً أبرز الشخصيات الذين مروا بهذا المكان، ووجدوا فيه، ولأن المكان جزء من هذه السيرة، فإنه يبين تفاصيل الدقيقة لصورة المكان، وأهم التغييرات التي حصلت فيها، وكيف تحولت عمان من بلدة صغيرة إلى مدينة واسعة، جراء عمليات التوسع والبناء التي حدثت لها في أواخر الاربعينيات من القرن المنصرم، وبعد تزايد أعداد الذين هاجروا إليها من البلدان المجاورة بعد الحرب العربية – الاسرائيلية أي بعد سنة 1948م وهذه الهجرة ساعدت في توسيع المدينة وقيام أبنية جديدة، فقبل هذا التاريخ كانت عمان بلدة نائية في جبل عمان، ثم تغيرت إلى مدينة دائمة التوسع[xxxv]، فبعد توقف الحرب العربية – الاسرائيلية، ونزوح أعداد كبيرة من الناس إلى عمان، أصبحت المدينة في ذلك الوقت "شيئاً مختلفاً، بمزاجها، بعدد سكانها، بامتدادها، إتساعها وايضاً بحجم القلق والخوف الذي سيطر عليها"[xxxvi]، ويحاول منيف تقديم صورة قديمة عن المدينة من خلال الاعتماد على المصادر التاريخية القديمة والحديثة، حتى يصل إلى حقبة الاربعينيات من القرن العشرين، ليعتمد بعد ذلك على ذاكرته في تحديد شكل المدينة وملامحها، وما حصل لها من تغييرات جغرافية، إذ يذكر ما ورد في أحد المصادر التاريخية صورة عمان في أزمان بعيدة، فقد جاء في معجم البلدان، أن عمان عبارة عن "... كورة من أعمال دمشق، بين الشام ووادي القرى، قصبتها عمان وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة، وبجود حنطتها يضرب المثل." [xxxvii]، وقد وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: "أما الصف الرابع (من هذا الإقليم) فسيف البادية. وهو جبال عالية، بارد، ذات قرى وعيون وأشجار، يقع فيه البلدان: مآب وعمان وأذرعات ودمشق وحمص وحلب"[xxxviii]، ويذكر منيف أوصاف هذه البلدة أو القرية في بعض المراجع الحديثة، ومن خلال مشاهدة بعض الزائرين والرحالة لهذه البلدة، فقد ذكر الرحالة بيركهارت أنه زار عمان سنة 1812م، وقد وصفها قائلاً "(... أن قبائل البدو كانت تتردد على مياه عمان لكي تسقي مواشيها وجمالها منها) (.... والنهر المدعو [مية عمان] ينبع من بركة في طرف البلدة الجنوبي، ويجري في واد تتاخمه على الجانبين تلال صوانية قاحلة)."[xxxix]، وكذلك ما ذكره بعض الرحالين الاجانب ومن بينهم الرحالة النمساوي الذي زار عمان سنة 1923م وهو أقرب وصف تاريخياً لعمان، قبل أن يبدأ منيف بوصفها في بداية الاربعينيات من القرن العشرين، وقد وصف الرحالة عمان في كتابه "الطريق إلى مكة" قائلاً: "كانت عمان، العاصمة المبنية على أطلال فيلادلفيا، مدينة مغمورة لا يتجاوز عدد سكانها ستة آلاف نسمة"[xl]، وتبدو عمان من خلال ما ذكره الكاتب من أوصاف بالاعتماد على المراجع والمصادر التاريخية أنها قرية أو بلدة، أو حتى مدينة مغمورة لم تصل إلى مفهوم المدينة بصورتها الواسعة، أي أنها إلى منتصف الاربعينيات كانت عمان بلدة صغيرة، ويحاول منيف بعد ذلك أن يذكر لنا مراحل التغيير المكاني التي طرأت على عمان خلال عشر سنوات وهي مدة أو زمن هذه السيرة، أي من سنة 1940-1949م فحدود "عمان" كما وصفها منيف، تبدأ بعد رأس العين، وأول المعالم فيها "البناء الذي يضم مولدات شركة الكهرباء مقابل سياج رأس العين، على يمين الطريق الترابي النازل. هذه أول إشارة للمدينة"[xli]، إذن يبدأ منيف بوصف حدود بلدة عمان

في بداياتها، وبعدها يأتي سوق الحلال وهي "في بسطة ضيقة من الأرض، عند تلاقي أودية الجنوب والغرب... على التل المقابل لسوق الحلال بيت نزال العرموطي"[xlii] وهو أول البيوت على حدود عمان من الجهة الجنوبية الغربية، ثم يذكر أماكن أخرى تقع على ضفاف النهر ومنها بساتين الشركس وبيوتهم أو (حي المهاجرين) ، ويؤكد منيف أن هذا الحي قد تغير كثيراً خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها؛ وذلك عندما زاد عدد المهاجرين والنازحين من دول أخرى، فأصبح الحي نسيجاً مختلطاً من الشركس والجنسيات الاخرى[xliii]، ونلاحظ هنا أن شكل المكان تغير بفعل الظروف السياسية، وقيام الحروب أثرت على جغرافية المدينة فغيرت من شكلها بعد بناء منازل، وأبنية جديدة.

ثم يستعرض منيف أماكن وأحياء مدينة عمان ابتداءاً من مواقع الجسور مثل (جسر المهاجرين والعبسلي)، والجوامع والأديرة والأسواق، والمدارس، والحمامات، والشوارع التي تمر بالأحياء والاسواق المهمة، وكذلك السجون، وهنا يؤكد إلى أن أول سجن أقيم في عمان كان واقعاً حول الجامع الحسيني بالقرب من سوق الخضرة، ومركز الشرطة الرئيس، وكان مؤلفاً من ثلاثة طوابق[xliv]، إلى جانب هذا يصف منيف أهم البيوت في عمان وأبرزها، وهي تشكل حدود بلدة عمان من نواحها الجنوبية والغربية والشمالية "ومثلما كان بيت العرموطي نقطة علام المدينة من ناحية الجنوب الغربي، فإن بيتي صالح بسيسو ومحمد حمزة، على طريق السلط، كانا من أواخر البيوت ناحية الشمال الغربي، كذلك الحال لبيت الجيوسي في غرب المدينة"[xlv].

ثم يحدد بعض البيوت التي تشكل حدود المدينة مثل بيت د. يوسف عز الدين مقابل درج فرعون (المدرج الروماني) وهو آخر البيوت من ناحية الشرق، ومن جهة الشمال للمدينة يحدد منيف بيتان مهمان هما: بيت محمد أمين الشنقيطي وابراهيم قطان، أما آخر الأمكنة من جبل اللويبدة فهو بيت البشارات[xlvi]، وما نلاحظه من تحديد الروائي للأمكنة بصورة دقيقة، هو دليل على مقدرة الكاتب الذهنية وقوة ذاكرته.

وبعد هذا التحديد الجغرافي لمنازل عمان، يؤكد منيف على أن منازل عمان في تلك الحقبة كانت تقع أغلبها حول النهر، ولا تبتعد كثيراً[xlvii]؛ وذلك لأن المناطق الاخرى البعيدة عن مركز المدينة لم تكن ملائمة للسكن؛ نظراً لعدم وجود طرق جيدة، ومعبدة، أو توافر الخدمات فيها مثل الكهرباء والمياه، وهكذا كانت الصورة الاولى لعمان، وهي محصورة عند أطراف النهر، وحول السوق، وهي الصورة الاولى قبل حدوث التغييرات فيها وقبل أن تتوسع وتكبر، لتصبح مدينة كبيرة في حقب لاحقة، ويحاول منيف أن يرصد بذاكرته صورة المدينة بعد التغييرات التي حصلت في نوعية الأبنية الجديدة واستخدام مواد بناء لم تكن معروفة من قبل مثل الاسمنت، وكذلك تعدد الطوابق للبيت الواحد، وهكذا بدأت عمان تتشكل بصورة جديدة، وأخذ الناس يسكنون في أماكن بعيدة عن السوق والنهر و"هكذا نشأت في عمان مجموعة هائلة من (المستعمرات) الصغيرة. فالأبنية تقوم وسط الأراضي الزراعية، وتكون غالباً، متباعدة، متفرقة، بحيث أصبحت المدينة، خاصة الجديدة، أشبه بالبقع، كانت تفتقر إلى الطرق، إلى الخدمات، لكن اصراراً عجيباً أقرب إلى العناد، جعل أصحابها يفعلون ذلك، الأمر الذي أدى لأن تأخذ عمان هذا الشكل، وهذا النسق، وجعل الفضاءات الخاوية بين (مستعمرة) وأخرى إحدى أبرز السمات التي (ميزتها) خلال تلك الفترة، وربما لاتزال كذلك، إلى حد ما، وأكثر من المدن الأخرى، وإلى الآن!"[xlviii]، ويحاول منيف إجراء مقارنة بين نوعية المنازل التي شيدت في الماضي وبين التي شيدت حديثاً، من ناحية الشكل ونوعية المواد التي استعملت في البناء، ففي أوقات سابقة كانت أغلب بيوت عمان مكونة من طابق واحد وهي "مبنية من الحجر غير المصقول، ومسقوفة بالخشب والقصب والطين، كما كان يجثم على كل سقف، تقريباً، مدخلة حجرية صغيرة، اسطوانية الشكل، تستعمل خلال فصل الخريف لدحل الأسطحة وترصيصها تجنباً للدلف."[xlix]، ثم تغيرت شكل هذه البيوت لاحقاً؛ وذلك بعد استعمال مادة الاسمنت في عملية البناء وبعد ذلك تغيرت عمان إذ "بدأت ترتفع فيها الأبنية العالية، ذات الطوابق المتعددة."[l] وهكذا بدأت تأخذ عمان شكلاً جديداً من خلال هذه الأبنية، التي اتخذت أشكالاً وألواناً مختلفة، وما زاد من حدة هذا التغيير هو مجيء عدد من البنائين والحجّارة المهرة إلى عمان الذين أضافوا مسحة جمالية على شكل الأبنية، ويوماً "بعد آخر، ولأسباب كثيرة، بدأت عمان تدخل في طور جديد، ومن أبرز مظاهره أن أخذت بيوت السكن تنأى شيئاً فشيئاً عن السوق وعن مجرى النهر، بدأت ترتقي أكثر التلال وتوغل في البعد عن الاماكن المزدحمة"[li]، ويؤكد منيف أن هذا التغيير حدث بصورة واسعة بعد الحرب العربية – الاسرائيلية، وأنها امتدت،

واتسعت من الجهات جميعها، وبدأ الناس يأخذون أماكن جديدة للإقامة مثل مثل سفوح الجبال، كجبل عمان والنظيف والأشرفية والجونة، عند ذلك تجمعت البيوت في هذه المناطق بصورة عشوائية و"هكذا اتسعت عمان وكبرت بشكل عشوائي، الأمر الذي فرض شكلاً وامتداداً لم يعد من السهل التحكم بهما"[lii]، ويلخص منيف هذه التغييرات للمدينة قائلاً: "أصبحت عمان تتسع وتكبر بوتيرة تفوق التصور أو تفوق أية فترة سابقة، أما عندما جاءت سنة 1948، وتدفق عدد كبير من اللاجئين، فقد أصبحت المدينة، وخلال فترة قصيرة، خزاناً بشرياً مكتظاً." [liii] .

الخاتمـــــــــــة

- تمييز الباحثين بين نوعين من السيّر ، الأولى هي الذاتية وتكون الكتابة فيها عن الذات بالاعتماد على الذاكرة ، والاخرى هي الغيرية وتكون الكتابة فيها عن ذوات الاخرين بالاعتماد على الوثائق والمستندات والشهادات .
- ظهور نمط جديد في كتابة السيّر وهي كتابة عن المكان ، أي يتناول الكاتب سيرة مكان معين في مرحلة معينة ، مستعرضاً فيها أبرز المحطات التاريخية والاجتماعية المهمة لذلك المكان ، الى جانب الحديث عن حياته ومواقفه ، ومواقف الاخرين ، وما حصل من تحولات وتغييرات اجتماعية واقتصادية وسياسية فضلاً عن التحولات المكانية ، إذ حاول منيف في سيرة مدينة ان يكشف لنا صورة المجتمع لمدينة عمَّان في الاربعينيات من القرن العشرين من خلال ذاكرته وباسلوب وقراءة جديدة .
- اكتساب مفهوم جديد للمكان من خلال الحديث عن علاقات الناس مع بعضهم البعض ، وبيان عادات وتقاليد واعراف ذلك المكان لتظهر لنا صورة المجتمع بشكل جديد .
- بينت لنا هذه السيرة مقدرة الكاتب الذهنية ، وذاكرته القوية في تحديد شخوص واحداث وأماكن مدينة عمان في مرحلة تاريخية بشكل كبير ودقيق بالاعتماد على الذاكرة من جانب ، وعلى الوثائق والشهادات من جانب آخر .

الهوامش والمصادر

(i) ادبية السير الذاتية في العصر الحديث ، بحث في آليات اشتغال النصوص ومرجعياتها الفاعلة ، ناصر بركة ، اطروحة دكتوراه ، الجمهورية الجزائرية كلية الاداب واللغات ، جامعة الحاج لخضر – باتنة : 19 .

(ii) فن السيرة الذاتية وأنواعها في الأدب العربي ، د. عبد المجيد البغدادي ، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب ، لاهور – باكستان ، عد : 23 ، 2016م : 191 .

(iii) السيرة الذاتية في الادب العربي ، فدوى طوقان وجبرا ابراهيم جبرا واحسان عباس انموذجاً ، تهاني عبد الفتاح شاكر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 2002 : 10 .

(iv)نفسه : 11 .

(v) معجم النقد الادبي ، ترجمة وتحرير كامل عويد العامري ، وزارة الثقافة جمهورية العراق ، بغداد ، دار المأمون ، 2013 : 46 .

(vi) السيرة الذاتية في الادب العربي : 16 .

(vii)ينظر : ادب السيرة الذاتية ، د. عبد العزيز شرف ، مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان 1992 : 5-6 .

(*) اعتمدتُ في دراستي للدكتوراه اعمال هذا الكاتب الروائية وقد استثنيت منها هذا العمل ؛ وذلك لأنها لا تدخل ضمن الاعمال الروائية ، فهي سيرة عن مدينة اعتمد فيها الكاتب على ذاكرته الشخصية وبعض الوثائق .

(viii)سيرة مدينة ، عمّان في الاربعينات ، عبد الرحمن منيف ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ط3 ، 2006 : 45 .

(ix) سيرة مدينة : 45 .

(x) نفسه .

(*) الطربوش هو "غطاء للرأس بحد ذاته، إرتداه أهل المدن دون أهل الارياف بعد أن شاع في مصر مع مؤسس حضارتها الجديدة (محمد علي باشا) وانتشر من هناك إلى شمال افريقيا وبأحجام وأشكال منوعة لكنه في الأصل كان قد وردها كما ورد بلاد الشام عن طريق العثمانيين المختلين وهؤلاء بدورهم كانوا قد اخذوه ربما من اليونانيين أو النمساويين أو من الأرمن." أما السدارة فهو غطاء للراس عُرفت في العراق أولاً مع مجيء الملك فيصل الاول، وتسمى في بلاد الشام باسم "الفيصلية" نسبة إلى الملك فيصل الاول، وانتشرت في المدن الاخرى، وعند كبار رجالات الدولة والطلبة والتجار. (غطاء الرأس تاريخ ودين، فيصل البيطار، الحوار المتمدن، عد 2970 في 4/ 9/ 2010 (مقال على شبكة الانترنيت).

WWW.qhemer.org/debat/show.art.

(xi) سيرة مدينة: 163.

(xii) ينظر: نفسه : 163-164.

(xiii) نفسه: 164.

(xiv) نفسه: 167.

(xv) نفسه : 164-167.

(xvi) نفسه : 170.

(xvii) ينظر: نفسه: 181-182.

(xviii) ينظر: نفسه: 184.

(xix) ينظر: نفسه : 170-173.

(xx) ينظر : نفسه : 182.

(xxi) ينظر: نفسه 175.

(xxii) ينظر: نفسه: 183.

(xxiii) نفسه : 185.

(xxiv) ينظر: نفسه : 185-187.
(xxv) نفسه: 187.
(xxvi) نفسه: 194.
(xxvii) ينظر: نفسه: 194-195.
(xxviii) نفسه : 196-197.
(xxix) ينظر: نفسه: 199-204.
(xxx) نفسه : 45.
(xxxi) نفسه : 46.
(xxxii) نفسه: 395-396.
(xxxiii) السيرة الذاتية في الخطاب الروائي العربي، بهيجة مصري ادلبي، عامر الدبك الوراق للنشر والتوزيع عمان – الاردن ، ط1 ، 2011م : 114.
(xxxiv) سيرة مدينة: 51-52.
(xxxv) ينظر: عبد الرحمن منيف 2008 (مجموعة من الباحثين)، عبد الرحمن منيف والفن الحديث، الصداقة – التبادل الرمزي وفن الكتاب، سونيا ميشار الأتاسي: 433، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت – لبنان ، واذكر الثقافي العربي للنشر والتوزيع ، المملكة المغربية ، الدار البيضاء ، ط1 ، 2009م .
(xxxvi) سيرة مدينة : 390.
(xxxvii) نفسه: 396.
(xxxviii) نفسه: 396-397.
(xxxix) نفسه : 397.
(xl) نفسه : 398.
(xli) نفسه.
(xlii) نفسه: 399.
(xliii) ينظر : نفسه: 399.
(xliv) ينظر: نفسه : 399-400.
(xlv) نفسه: 400-401.
(xlvi) ينظر: نفسه.
(xlvii) ينظر: نفسه : 402.
(xlviii) نفسه: 402 .
(xlix)نفسه .
(l) نفسه: 403.
(li) نفسه: 404.
(lii) نفسه.
(liii) نفسه : 405.